

المحاضرة الثامنة

الجرجاني ونظرية النظم

الجرجاني، العالم البارز في البلاغة والنقد الأدبي، جاء ليضع تصورًا نقديًا جديدًا يركز على النظم كركيزة أساسية لفهم النصوص الأدبية. في عصره، كان النقد الأدبي غالبًا يركز على مفردات اللغة، أو على المعاني بصورة معزولة، لكن الجرجاني أحدث ثورة في النظر إلى النص ككل متكامل.

مفهوم النظم عند الجرجاني:

النظم ليس فقط ترتيب الكلمات، بل هو فن الربط والتناغم بين الكلمات والمعاني بحيث يتشكل لدى القارئ أو المستمع إحساس بالجمال والتأثير الفني. النظم هو ما يجعل النص يخرج من كونه مجرد كلمات متفرقة إلى عمل أدبي متكامل يمتلك روحًا وهوية خاصة.

الجرجاني يشبه النظم بـ"النسيج المحكم" الذي تتشابك فيه الخيوط بدقة، فلا يمكن فكها دون أن يتضرر الشكل العام. بهذا المعنى، النظم يمثل وحدة جمالية لا تقبل التجزئة.

عناصر النظم بحسب الجرجاني:

• التناسب والتوازن:

لا يكفي أن تكون الكلمات معبرة أو المعاني عميقة، بل يجب أن تتناسب أجزاء النص مع بعضها، بحيث يشعر المتلقي بالانسجام. على سبيل المثال، إذا كانت هناك فكرة عاطفية قوية، يجب أن يتناسب طول البيت أو العبارة مع عمق هذه الفكرة، فلا يكون هناك تطويل ممل أو اختصار مفاجئ.

• الترابط الموضوعي:

يجب أن تسير الأفكار والمعاني بسلاسة، بحيث لا ينتقل النص فجأة من موضوع إلى آخر دون تمهيد، مما يفسد وحدة النص ويشتت القارئ. الترابط هو ما يجعل النص كأنه قصة أو مشهد متكامل.

• الإيقاع الموسيقي والانسجام الصوتي:

يوسع الجرجاني مفهوم الوزن إلى ما هو أعمق، بحيث يشمل انسيابية الكلمات وأصواتها التي تعمل على خلق تأثير موسيقي يطرّب النفس. هذا الإيقاع يساعد في تثبيت المعنى ويزيد من قوة التأثير النفسي للنص.

أهمية النظم في إثارة المشاعر:

يرى الجرجاني أن النظم لا يقتصر دوره على الجمال فقط، بل هو أداة فعالة في توجيه الشاعر والأفكار لدى القارئ. النص المنظم بعناية قادر على إثارة مشاعر متنوعة ومركبة، لأن الترتيب الجيد يجعل كل كلمة وكل فكرة تنبض في لحظة مناسبة، فتحدث أبلغ أثر ممكن.

أمثلة تطبيقية على نظرية النظم:

لنأخذ مثلاً من الشعر العربي الكلاسيكي حيث تتجلى أهمية النظم:

“فقا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل”

في هذين البيتين، النظم لا يتجلى فقط في الوزن والقافية، بل في التابع المنطقي بين المشهدين الشعريين، والترابط الموضوعي بين “ذكرى الحبيب” و”المكان”، مع إيقاع موسيقي محكم. هذا النظم يجعل القارئ ينتقل بسهولة مع الشاعر عبر المشاعر والصور، ما يخلق تجربة شعرية متكاملة.

أثر نظرية النظم على النقد العربي:

بعد الجرجاني، صار النقد الأدبي يعتمد أكثر على دراسة النصوص كوحدة كلية، مما سمح بفهم أعمق للأعمال الأدبية. لم يعد الناقد يركز فقط على الكلمات الفردية أو القواعد الصرفية والنحوية، بل أصبح ينظر إلى كيفية تفاعل كل عنصر داخل النص مع باقي العناصر لخلق العمل الفني الكامل.

كما أن هذا التوجه أتاح مجالاً لدراسة أنواع جديدة من البلاغة مثل البلاغة النصية، التي تعتمد على تحليل النص بأكمله، وهو ما يواكب تطور الدراسات الأدبية الحديثة.

الجرجاني بين البلاغة والنقد:

الجرجاني لم يقف عند حدود البلاغة التقليدية التي تدرس الجمال في الكلام فقط، بل ربط بين البلاغة كفن والنقد كعلم يدرس النصوص لتحليل جمالياتها بموضوعية. لذلك كان كتابه “دلائل الإعجاز” نقطة تحول

كبيرة، حيث شرح فيه كيف أن النظم البلاغي هو أساس إعجاز القرآن الكريم، وأي نص أدبي عالي الجودة.

خلاصة:

يمكن القول إن الجرجاني بنظرية النظم قدّم إطاراً نقدياً متكاملاً يجعلنا نرى النص الأدبي ككائن حي متكامل له نظام داخلي فني متجانس. هذا المفهوم كان ثورة في نقد الأدب العربي، وأدى إلى تطوير أداة تحليل دقيقة تساعد في تقييم النصوص وتقدير جمالها بطريقة علمية وعميقة.

النظم بالنسبة للجرجاني ليس ترفاً بل ضرورة لخلق النصوص القادرة على التواصل الفني الحقيقي مع المتلقي، ولإثارة المشاعر وتحفيز الفكر بطريقة متزنة وجميلة.